صوت الضمير

قصة للأديب الألمانى: ف.فون لمبورج

تعريف وتلخيص: أنور السادات

هذه القصة قام بتعريبها وتلخيصها اليوزباشى "محمد أنور السادات" عن أحد أعمال الأديب الألمانى ف. فون لمبورج عام 1948، وذلك على الرغم من حياته خلف الأسوار فى تلك الفترة العصيبة من تاريخ حياته وتاريخ مصر فى الوقت نفسه. ولكن مرارة الاعتقال والسجن لم تقتل فيه حبه للثقافة والفن والفكر والأدب. ونحن ننشر اليوم لأول مرة هذه القصة لنرى أنها لم تكن مجرد عملية ترجمة وتلخيص، بل كانت دليلا واضحا على الأسلوب الأدبى الممتع الذى تميز به قلم الأديب المفكر "أنور السادات"، والفكر الإنسانى الشامل الذى برز بعد ذلك فى قيادته لأمتنا.

تسلك خيوط الشمس الذهبية من خلف الجبال لتهبط فى جلال وإشراق على تلك القرية الألمانية الوادعة معلنة طلوع يوم جديد. وكان إشراق الشمس فى هذا المكان نادرا، لذلك لم يلبث السكان أن خرجوا فى مواكب هادئة: هذا إلى عمله وذاك إلى مصلحة يقضيها. وكان الكل مبتهجا منتعشا، فقد امتزج نسيم البكور الندى بنور الشمس الدافئ.

وفى ركن من أركان القرية، خرج الحداد العجوز من منزله ليستقبل يومه فى أمل ونشاط، فمازال السكان يعتبرونه "تعويذه"، يتبركون بالحديث إليه عن سالف الأهل والأزمان، ويلجئون إليه طلبا للنصيحة والمشورة. فقد اشتهر هذا العجوز بطيبة القلب، وحسن المعاملة، فأحبه الجميع و... وأحبهم.

خرج الحداد من داره رافعا رأسه إلى السماء، وما أن امتلأ صدره برائحة النهار حتى اعتدل ليتجه إلى دكانه الذى عاش فيه وثابر حتى جمع ثروة طيبة كانت خير عون له على أعمال البر والخير. وما أن اتجه إلى الطريق حتى وجد بالقرب من بابه طفلا تكسو جسمه أسمال بالية ينادى أمه فى أنين مكتوم. أنه لابد وأحد من أولئك الذين قست عليهم الأيام، فحرموا عطف الأهل، وجو الأسرة الرفيق.

وذاب قلب الحداد فى صدره شفقة على هذا البرىء المسكين، فالتقطه وحاول أن يسأله عن حكايته، فلم ينطق الطفل إلا بكلمتين: إحداهما كانت نداء لأمه، والأخرى هى اسمه... فجملة الرجل إلى الداخل حيث ألقاه فى حجر زوجته هاتفا:

- أبشرى يا عزيزتى .. ها هو رزق البكور.. وجدته بجانب الباب فلنضيفه إلى القائمة...

- آه تلك يا عجوزى الطيب.. أما يكفيك أبنك وبنت أخيك المتوفى.. فتريد أن تجيش لى جيشا من الأطفال.. أما تدرى ما يتطلبه تعليمهم وتنشئتهم..؟

- تبا للدهر حين يقسو.. ألا يبهجك يا عزيزتى أن نوقد الدفء والنور فى هذه القلوب البريئة الطاهرة؟.

- يبهجنى أن نخرج الآن إلى عملك، فتعداد العائلة بفضل بلاهتك فى تضخم.

- لا تقلقى .. فسأعلم أبنى وهذا الربيب مهنتى طالما يشبان.. وسيكونان رجلين يضيئان شيخوختنا.. وعليك أنت أن تتولى أمر الفتاة.. والله يرعانا جميعا..

خرج الحداد إلى دكانه، بينما انساب الأطفال الثلاثة إلى مرحلة الحداثة فينصرف الوالدان إلى الدكان لتعلم حرفة الأب، وراحت البنت تعمل تحت إشراف الأم فى إدارة شئون البيت.

لم يكن جمع العائلة يكتمل إلا على مائدة العشاء، وكان الناظر إلى الولدين يلمح سرا كبيرا يعتمل فى صدر كل منهما كما يلمح أيضا حرصا على إخفاء هذا السر بحيث لم يشعر أحد من أفراد الأسرة بما يدور فى مكنون أحدهما. فالربيبة اليافعة كانت قد نمت وتفتحت فى إشراق كأزهار الربيع، والفتيان فى هذه السن عبيد العاطفة... لا تحكمهم عقولهم بقدر ما تحكمهم عواطفهم.

وفى يوم من أيام يناير الباردة جلس الوالدان إلى الحداد العجوز يطلبان منه أن يأذن لهما فى الخروج إلى الحياة مكافحين.

- ولكن يعز على وأنا فى هذه السن أن تتركانى أسير وحدى فى موكب الحياة.

- انك تعلم أن فى السفر خبرة وتجربة، قلما تتاح لمن يعيش فى محيط ضيق، وكلما ازددنا علما، زاد إيماننا. فاسمح لنا لنعد إليك ظافرين..

- أننى مع حزنى لفراقكما لا أرى إلا رأيكما.. فأحذرا فى سفركما رفيق السوء. وأكبحا النفس فإنها أمارة بالسوء.. والله يبارك ترحالكما.

وفى الطريق اتفقا على أن يلتقيا بعد ثلاثة سنوات فى حانة تقع على الطريق العام بعيدا عن القرية ليدخلاها سويا. وأنصرف كل إلى سبيله يحمل سره فى قلبه، ويطوى نفسه على آمال.

وفى القرية، جلس الحداد العجوز يتلقى رسائلهما فى شوق ونشوة.. ولم يخل عليهما يوما بنصيحة أو توجيه وظل أبدا يرقب يوم العودة.

وطوى الزمن ثلاث سنوات كاملة من دورته. واستقبلت الحانة ولديها اللذين جلسا يقصان أخبارهما. قال الربيب.

- سافرت وتنقلت،وما أعذب الترحال.. كنت أقضى النهار عاملاً كادحاً، وما يجن الليل حتى أجدد النفس حسبما يوحى المكان. ففى القرى الصغيرة كنت أمل الليل فى تلك الحانات الرطبة الضيقة، ولما سكنت المدن الكبيرة رأيت الليل بوجهة الحقيقى.. وهناك فى بيوت اللهو يرى الإنسان متعه الدنيا ونعم الحياة.. وصدقنى يا أخرى ما أسخف العمر إذا لم يرتشف الإنسان رحيق اللذات.

وقال ابن الحداد:

- والله يا أخى أن فى السفر والتنقل متعة ولذة. لقد كنت أستقبل يومى مع الشمس هاتفا فى مرح: "ها هو يوم جديد".. وكنت أراه جديداً فى كل شيء.. كم رقص قلبى طربا للطبيعة فى حبورها وتنوعها. وكم استعذبت حديث الناس ولهجاتهم فى مختلفة البقاع.. لقد رأيت فى كل مكان شيئا فيه آية جديدة على قوة الخالق وقدرته، وحين امتلأت نفسى بالروعة والإيمان، تعلمت الحب.. الحب الحقيقى. حب الله، وحب الناس، وحب كل شيء.

وسبح ابن الحداد فى سرحة طويلة عكست على وجهه بشرا وبهجة، فسأله الربيب فى برم وملل:

- ألم يكتب إليك العجوز حديثا؟

فأجاب الفتى وعلى وجهة بريق من الفوز والسعادة:

- نعم، لقد كتب إلى خطابا شهيا إلى نفسى، وحبيبا إلى روحى.. أتدرى ما هو؟.. لقد وعدنى بأختنا الربيبة زوجة لى.. ووعدنى أيضا بأن يتنازل لى عن تجارته ومكانه.

وقع الخبر على فتانا الربيب وقع الصاعقة.. وألهبت شياطين الغيرة فى قلبه نارا متأججة من الحقد والكراهية، ووسوست له نفسه بكيد عظيم.. ولكنه كتم أمره.. وقاما ليقفلا إلى قريتهما راجعين.

وفى الطريق، وبقرب التلال التى تشرف على طريق "زيتاور" الكبير.. يهمس الشيطان فى أذن الربيب بفوايته، وتنطلق أفاعى الحقد تنفث سمها فى دمه وتغطى عينيه بغشاوة محرقة مهلكة.. الربيبة. الثروة.

ويستبد الشر بنفسه الخبيثة، فينهال على رفيقه بعصاه.. ولا يفيق من سورته الجنونية إلا وضحيته جثة هامدة.

تمت هذه الفعلة الشائنة فى جنح الليل البهيم، وحين رأى الربيب ضحيته وقد تحول إلى كومة من اللحم، تفاعلت فى نفسه الدنيئة عوامل الحرص على الحياة، فأسرع إلى أقرب حفرة ووارى الجثة فى إتقان مخيفا بذلك معالم جريمته، وكانت الساعة عندئذ تدق معلنة الثانية عشرة.

وفى اليوم التالى.. أصبح عليه الصباح وهو يدخل القرية.. واتجه إلى المنزل فى هدوء وسكون كان لم يحدث أمس أمر فى الظلام.. وأقبل عليه الحداد العجوز فى شوق ولهفة يقبله وهو يبكى فرحا:

- أهلا بالابن الكريم فى وطنه وبين أهله.. كيف حال أخيك؟

وانهالت عليه القبلات والأسئلة فى سيل لا ينقطع. وأخذ فى سرور مفتعل، يروى أخبار رحلته.. أما الابن الغائب فقد زعم أنه لا يعرف عنه شيئا.

وانتظر الحداد سنة كاملة دون أن تصله أخبار من ذلك الابن الغائب. عندئذ تبدد أمله فى أنه لا يزال على قيد الحياة.

وأقم مأتم الغائب.

ولما هد الحزن كيان الحداد العجوز وأراد أن يستريح دعا فتانا الربيب فتنازل له عن تجارته، وزوجه من الربيبة الشابة.

ومرت على زمن الحادث ثلاثون سنة.

وصار القاتل رجلا، وراح يزاول عمله فى مثابرة وجد، ويرتع فى منزله فى بحبوحة من العيش وهناء مع زوجته.

وفى يوم من أيام الشتاء الباردة كان الثلج يتساقط فى مشهد جميل، بينما النجوم تسطع فى سماء ديسمبر القاتمة، فكر فى أن يذهب إلى القداس فى الكنيسة القريبة.

وفى الطريق، بدأت ساعة المدينة تدق معلنة الوقت.. وأنصت الربيب، كم مرة تدق.. اثنتى عشرة مرة.. أنه لابد منتصف الليل.

لا .. لابد وأن هناك خطأ فى شئ. بالله ما هذه الأطياف.

وعاد يجرى مسرعا إلى منزله وكأنه قد أصابه مس من الشيطان، أن أشباح جريمته إلى ارتكبها قبل ثلاثين سنة وفى نفس هذه الساعة.. الثانية عشرة.. تطارده وتلاحقه.

وفى أنين مكتوم.. وسيل غزير من العرق.. استلقى القاتل القديم على سريره، واستيقظ فى صباح اليوم التالى على مشهد زاد من فزعه.. فقد وجد بوليس الحاكم يحاصر منزله.. ودق الباب دقات مفزعة.. وفى لهجة حازمة، سمع من يقول:

- هل السيد هنا؟

دار رأس السيد فى عنف، وأجاب فى ذهول:

- نعم.. ولكننى لم أقتل.. لم أقتل.. آه.. لا..

ودخل رجال الشرطة، وألقوا القبض على السيد الربيب وقادوه إلى سراي الحاكم.

وفى غرفة الحبس استبد الهلع بنفس الرجل، وامتلأت الحجرة ثانية بأطياف جريمته التى ظن أنها قد دفنت، بعد أن انقضى على وقوعها جيل طويل. وتملأ الرهبة نفس القاتل فيفلت منه الزمام، ويصرخ فى جنون وهو يقرع الباب.

- افتحوا.أريد أن أعترف .قتلته. الربيبة. الثروة.

وظل يقرع الباب وهو يهذى بهذه الكلمات، حتى فتح الباب.. واقتاده الحراس إلى مجلس الحاكم.

وقبل أن يوجه إليه الحاكم تهمة السرقة التى قبض عليه من أجلها نتيجة لغلطة الاشتباه فى آثار أقدامه التى وجدت على الثلج مفضية من الكنيسة إلى منزله، اندفع يروى فى انفعال مثير، تفاصيل جريمة القتل التى لم يقبض عليه بسببها، ولم يسأله أحد عنها.

وكان الجزاء .. واستراح الضمير.

****